التشريع والإعجاز في التركيب القرآني: نظرات بيانية في آيات الوالدين

عودة خليل أبو عودة*

الملخص

يحاول البحث أن يثبت حقيقة راسخة ينبغي أن تكون قاعدة عند كل بحث في الإعجاز، وهي أن القرآن الكريم إنما أنزل قرآنا عربيا ليكون معجزة الله الخالدة لرسوله صلى الله عليه وسلم. أي إن التشريع الذي أنزل على محمد في (الكتاب) إنما أنزل قرآنا عربيا ليكون معجزة خالدة. وهكذا يلتقي القرآن في الكتاب ويحتوي الكتاب على القرآن في جمع إلهي معجز بين التشريع والإعجاز في شيء واحد هو كتاب الله عز وجل .

وكل آية من آيات الله يمكن أن تكون شاهدا على ذلك، ولكن هذا البحث اتخذ من التشريع الإلهي في طاعة الوالدين وبرهما والإحسان إليهما مثلا على هذه الحقيقة، وهكذا عرض البحث الآيات الواردة في برّ الوالدين، وبين الفرق بين الوالدين والأبوين والأولاد والأبناء، ومضى مع آيتي سورة الإسراء في الإحسان إلى الوالدين، وحاول أن يستخرج ما فيهما من شواهد الإعجاز القرآني والبيان الإلهي الذي لا تنتهي عجائبه، وكم فيهما من صور البيان وروائع القرآن.

المقدمة

العلاقة بين التشريع والإعجاز

مرت على الناس أحيان من الدهر كانوا فيها ينظرون إلى الإعجاز القرآني نظرات جزئية، أي إنهم كانوا يقسمون الإعجاز إلى عدة أقسام فيقولون: الإعجاز اللغوي، والإعجاز البياني، والإعجاز العلمي، والإعجاز التشريعي، وبعضهم كان يعدّ وجوه الإعجاز ومجالاته، فيقولون إن القرآن الكريم معجز بما اشتمل عليه من :

١. الإخبار عن أمور الغيب التي لا تدرك إلا بالوحي .
٢. أنباء الأمم السابقة .
٣. أحكام التشريع الكامل الذي يفوق شرائع البشر.
٤. تعبيره عن حاجات الناس ودقائق مشاعرهم.
٥. بعض مظاهر العلوم الكونية والاجتماعية.
٦. نظم جديد يخالف المعروف من أساليب التعبير.
٧. تأثيره في قلوب الناس قديما وحديثا .

ولا ريب أن هذا كلّه صحيح، ولكن ليس هو الفهم الدقيق لمفهوم الإعجاز القرآني. لقد حان الوقت لكي نقول: إن القرآن الكريم معجز كله، بكل ما فيه منذ الحرف الأول فيه حتى الحرف الأخير، بل إنه نزل من عند الله لكي يكون معجزة رسول الله ﷺ إلى أمته التي امتازت بسمو شأنها وعلو كعبها في مجال القول والبيان. وليس من المقبول أن ننظر إلى هذه المعجزة الخالدة نظرات مجزأة، بل ينبغي أن نؤمن إيمانا وثيقا بكون القرآن الكريم معجزة رسول الله ﷺ التي أيده الله عز وجل بها في مواجهة قومه أرباب الفصاحة والبيان، فإذا آمنا

---

* أستاذ مشارك، كلية الآداب، جامعة الزرقاء الأهلية، الزرقاء، الأردن

بذلك يكون ما نذكره من وجوه الدلالات القرآنية المعبرة في بعض سور القرآن الكريم وآياته وكلماته، شواهدَ على الإعجاز القرآني، وليست دلائل عليه وبراهين على وجوده. وذلك لأنه ثبت لدينا بأن القرآن الكريم ما أنزل إلا ليكون معجزة من عند الله، وليس يعقل أن يكون بعض ما أنزل من القرآن الكريم معجزاً، وبعضه الآخر ليس فيه شيء من الإعجاز.

وذلك أن رسل الله عز وجل إلى الناس، كلّ إلى قومه في زمنه، كانوا يُزوَّدون بالتشريع الإلهي، ويُؤيَّدون بالمعجزات المناسبة لأزمانهم وشعوبهم. وكان التشريع عند كل منهم، ممن بُعث قبل سيدنا محمد ﷺ، يتنزل عليه في كتاب من عند الله، وكان هذا الكتاب يختلف تماما عن المعجزة التي يؤيد بها كل نبيّ منهم، عليهم الصلاة والسلام؛ مثال ذلك كتاب موسى عليه السلام كان التوراة، وكانت معجزته إبطال السحر . ومثال ذلك أيضا كتاب عيسى عليه السلام، وكانت معجزته إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله. وكانت معجزة صالح عليه السلام ناقة الله التي كانت تشرب الماء في يوم ويشرب الناس الماء في اليوم الثاني، قال تعالى: "**قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم، ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم، فعقروها فأصبحوا نادمين**"(١) وقد ذكرت قصة موسى عليه السلام في مواطن عديدة في القرآن الكريم، منها ما ورد في سور: الأعراف وطه والشعراء والقصص وغيرها. كذلك فُصِلت قصة المسيح عليه السلام ومعجزته مع قومه في سور البقرة وآل عمران ومريم وغيرها .

كان لكل رسول –إذن– كتابه ومعجزته أو معجزاته. وكانت معجزات الأنبياء حِسية، مؤقته, محدودة، انتهت بانتهاء الهدف منها، وبانتهاء فترة الرسالة والتشريع الذي أمر نبي الله بتبليغه.

قال شوقي (٢):

جاء النبيون بالآيات فانصرمت
وجئتنا بكتاب غير منصرم
آياته كلما طال المدى جدد
يزينهن جمال العتق والقدم

ثم كانت بعثة محمد ﷺ، واقتضت حكمة الله أن يكون خاتمَ الأنبياء والمرسلين، وأن تكون رسالته خاتمة الرسالات السماوية، وأن تكون الرسالة الخالدة، والدين الباقي إلى يوم الدين، وعلى سنة الله عز وجل في رسله وفي خلقه، كان لا بد أن يُنزّل على سيدنا محمد ﷺ كتاب سماوي فيه التشريع الإلهي الخالد، فيه الدين القيم، ولا بد –أيضا– أن يؤيد محمد رسول الله ﷺ بمعجزة إلهية يواجه بها قومه أهل الفصاحة والبيان وأن تكون هذه المعجزة باقية إلى يوم الدين، لانها ستلازم رسالة محمد عليه الصلاة والسلام، الرسالة الخالدة الباقية، فأنزل على محمد ﷺ كتاب الله :

---

١. الشعراء: ١٥٥– ١٥٧.

٢. شوقي، **الشوقيات** – ج١ ، ص: ١٩٧.

"الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا، ماكثين فيه أبدا"(٣) **"المص، كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه، لتنذر به وذكرى للمؤمنين "**(٤) وأراد الله عز وجل أن يؤيد رسوله بمعجزة في أعلى درجات الفصاحة والبيان، تذهل قومه الذين ظهروا على الدنيا ببيانهم الأدبي الرفيع، بمعجزة تتضاءل أمامها المعلقات على فصاحتها وبيانها، وتتصاغر أمامها القصائد والحكم والخطب والأمثال والوصايا التي كانوا يتبادلونها على روعتها وسموها. فأيد الله عز وجل رسوله محمدا ﷺبالقرآن الكريم فكان القرآن الكريم معجزته إلى يوم الدين. فما الكتاب -إذن – وما القرآن الكريم(٥)؟هذا هو السؤال الكبير.

قضت قدرة الله عز وجل، وشاءت حكمته أن يكون كتاب الله التشريع، وقرآن الله الإعجاز شيئا واحدا، وهذا أمر لا يكون إلا من عند الله، ولا يتحقق إلا بقدرة الله عز وجل.

وقد فَصّلَتْ آياتُ القرآن الكريم هذا الأمر في سور عديدة وآيات واضحة الدلالة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى:

"الر تلك آيات الكتاب المبين، إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون " (٦)

" الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين" (٧)

" طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين " (٨)

"حم، والكتاب المبين، إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون "(٩)

"إنه لقرآن كريم، في كتاب مكنون، لأيمسه إلا المطهرون، تنزيل من رب العالمين "(١٠)

وتلاحظ أن الضمائر في (أنزلناه) و (جعلناه) و (إنه) تعود على (الكتاب) الذي أراد الله عز وجل أن (ينزله) و(يجعله) قرآنا عربيا. وأحسب أن هذه حقيقة ساطعة لا يمارى فيها أحد من المنشغلين بالدراسات القرآنية، وعلوم التفسير. وأنها تؤكد أنه لا ترادف بين مفردات القرآن الكريم التي يبدو لبعض الناس – في الوهلة الأولى – أنها بمعنى واحد، كالقرآن والكتاب والعذاب والعقاب والأجر والثواب وما إلى ذلك(١١).

وأمام هذه الحقيقة -أيضا – تتلاشى قضية اللفظ والمعنى التي شغلت الناس كثيرا ،

---

٣. الكهف:١–٣.

٤. الاعراف: ١–٢.

٥. تفصيل ذلك في: أبو حسان، **دراسات إسلامية وعربية،** ص: ٤٧١ (بحث: الكتاب والقرآن، للدكتور: عودة أبو عودة) .

٦. يوسف:١–٢.

٧. الحجر: ١.

٨. النمل: ١.

٩. الزخرف : ١–٣.

١٠.الواقعة :٧٧–٨٠.

١١. ينظر من أجل تفصيل هذه المسألة:أبو عودة، د. عودة، **التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم.**

وتشعبت فيها الآراء، وكثرت فيها النظريات، وما كان ذلك الخلاف ليكون لو أنهم نظروا إلى المسألة نظرة عميقة، عادوا فيها إلى أصول البحث في نظرية الدلالة التي تأخذ كثيرا من دعائمها وأسسها وأصولها من الفهم الدقيق لمصطلح الإعجاز القرآني .

إن قضية اللفظ والمعنى – بهذا الفهم – قضية دلالية نقدية، وإنها بحاجة إلى دراسة جديدة تحقق المسألة من خلال النظرة البيانية الدقيقة في إعجاز القرآن الكريم. وهي بهذا الفهم –أيضا– تشبه ان تكون كمسألة تحديد العلاقة بين الجسد والروح. وما أظن أحدا من الناس يمكن أن يفصل بينهما، أيا كانت أسبابه ووسائله. وإنك لتنظر إلى الإنسان – أي إنسان– فتحاول أن تسبر غوره وتدرس شخصيته من خلال حديثه وإشاراته وملامحه وحركاته، وإنك لتجد تلازما دقيقا بين ما تراه من صورته الخارجية وما تحس به من فكره وأخلاقه وعواطفه. ولو فقد هذا المرء روحه لسقط الجسد جثة هامدة لا حياة فيها فحياة الجسد بروحه، والروح لا يتشكل ولا يظهر إلا في الجسد الذي يخلق له. تلازمٌ من عند الله، وخلق بديعٌ نابع من قضاء الله وقدره .

إن القرآن الكريم يشكل كلا متكاملا يلتقي فيه التشريع (الكتاب) والإعجاز (القرآن) في شيء واحد هو القرآن الكريم. أو هو يشكل الروح (التشريع) عندما ينزل على سيدنا ﷺ في إطار فريد من التركيب اللغوي الذي لم يألفه العرب. وما كان هذا التركيب اللغوي ليكون مدهشا مثيرا، لو لم يكن يحمل من المعاني والدلالات ما جعل العرب، وهم أهل الفصاحة والذوق البياني العالي، يقفون مندهشين من هذا البيان الجديد.

وقد ورد في القرآن الكريم ما يدل على انه روح متجدد، وأن النبي ﷺ لم يكن قبله يدري ما الكتاب، وأن هذا الكتاب هو نور يهدي به الله من يشاء من عباده ، يقول الله عز وجل: "**وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا، ماكنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم**"(١٢).

فالكتاب الذي تجسد في لفظ القرآن وتراكيبه هو روح من أمر الله، وعندما نقرأ عن الروح قوله تعالى في سورة الإسراء: "**ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**"(١٣).

لنا أن نتساءل تساؤل الباحث المتدبر: ما العلاقة بين الروح الذي يتلبس الجسد، والروح الذي هو الكتاب الذي أوحى إلى النبي ﷺ، وكلاهما روح من أمر الله. وقد قلت (كلاهما) لأن الروح ورد في بعض الآيات وصفا للقرآن الكريم، وفي بعض الآيات وصفا للروح الإنساني الذي به تكونت الحياة. ومن يدري لعل الله عز وجل يفتح على الباحثين والدارسين والمتدبرين كتاب الله عز وجل فيرون أن كلمة (كلاهما) في مثل هذا السياق لا ضرورة لها،

---

١٢. الشورى : ٥٢.

١٣. الاسراء : ٥٨.

وأن الحديث عن (الروح) يمكن أن يكون حديثا واحدا عن كل ما أحياه الله عز وجل بروح من أمره .

ومهما يكن من أمر، فالكتاب –إذن– وهو القرآن الكريم تشريع كله، تشريع في سوره وآياته كلها، مثلما أنه معجز بسوره وآياته كلها. ومن خصائص كتاب الله عز وجل أن التشريع يمتزج فيه – كما رأينا – بشواهد الإعجاز . وأن هذا التشريع موجود في كل سورة وفي كل آية. وأن المسألة الواحدة من مسائل الحياة يأتي تشريعها متفرقا ومجزأ في آيات عدة، وفي سور عدة ، حتى إذا أراد الباحث ، أو الفقيه أن يجمع أحكام المسألة الواحدة جمعها من مواضع مختلفة. انظر إلى آيات الصلاة – مثلا– وإلى آيات الزكاة، وآيات البيع والشراء، وآيات الأحوال الشخصية التي نسميها الآن، الزواج والطلاق والميراث والوصية، وانظر إلى تفاصيل هذه الأحوال في آيات عديدة وسور كثيرة. وانظر إلى آيات التشريع الاجتماعي في بناء الأسرة المسلمة، اللبنة الأساسية في بناء المجتمع، تجد أنها تتحدث عن فروع كثيرة وأحوال متنوعة، تتحدث عن الأب والأم والزوج وزوجه، والأولاد وما لهم وما عليهم، وواجبات كل فرد تجاه الآخرين وتجاه مجتمعه، وتفصيل الآيات القرآنية في أحوال المرأة: بنتا وزوجا، وأما وأختا. وفي أحوال الرجل ولدا وزوجا وأبا وأخا. وما يعترض هذه الأحوال من حالات الزواج والطلاق، وحقوق الأقارب وذوي الفروض في الميراث والوصية، ولم تتحدث الآيات القرآنية عن هذه الأحوال – وعن غيرها – في مكان واحد أو في سورة واحدة، بل تكاد هذه الأحوال تنتشر في كل سور القرآن الكريم، ومثل هذا يمكن أن يكون في أي مسألة أخرى من المسائل الحيوية التي تعرض للإنسان في مسيره ومصيره .

ومما يدل على هذا أن بعض الكتب التي تهتم بالدراسات القرآنية أصبحت تعرض فهارس لموضوعات القرآن الكريم. فتذكر موضوعا ما ثم تبين الآيات والسور التي تتحدث عن هذا الموضوع في كل القرآن. وقد وقفت أخيرا على طبعة جديدة للمصحف الشريف أصدرتها دار المعرفة بدمشق، اهتمت بتلوين الحروف وفق أحكام التجويد، وقد خصصت هذه الطبعة إحدى وخمسين صفحة من القطع الكبير لدراسات وإحصاءات وفهارس للقرآن الكريم، كانت منها أربع وثلاثون صفحة بعنوان (فهرس مواضيع القرآن الكريم) وقد ذُكرت في هذا العنوان عشرات العناوين الفرعية، وتحت كل عنوان ذكر عشرات المواضيع التي تحدثت عنه في القرآن الكريم. ومن ذلك عنوان (حق الوالدين)(١٤) الذي ورد تحت أحد عشر موضعا في سبع سور من القرآن الكريم، تتحدث كلها عن حقوق الوالدين على أبنائهم في شرع الله عزّ وجلّ بأنّ هذا التشريع خاص بكتاب الله، ولا يمكن أن يكون إلّا من عند الله، وهو دليل كاف –وحده– على عظمة الله عز وجل ووحدانيته وألوهيته، فهو عز وجل "**لا إله إلا هو وسع كل**

---

١٤. صفحة ٦٤٢

شيء علما"، وإلا فأي تشريع يمكن أن يرافق الإنسان في كل دقائق حياته ومراحلها ونوازعها وحاجاتها، فيقدم لها الحكم الإلهي الذي يناسبها .

ولعل هذا التشريع يعلم الإنسان أن يكون حكيما عندما يسن قوانين الحياة المستمدة من الشرع الحكيم، فيتعلم من آيات الله عز وجل كيف يضع أحكام دينه ودنياه، وكيف يكون فطنا واعيا عندما يستنتج الأحكام اللازمة من فهمه لآيات الله عز وجل، ما يجب أن يكون وعيا كبيرا وخبرة واسعة بما يسمى الان، فقه المرحلة، أو فقه الواقع الذي يستمد من روح التشريع الإسلامي الصحيح والفقه الواعي لآيات القران الكريم .

٢. حقوق الوالدين في آيات القرآن الكريم

٢. ١ مواضع ذكر الوالدين في القرآن الكريم

ذكرت حقوق الوالدين في القرآن الكريم في اثني عشر موضعا، هي كما يأتي:

١. في سوره البقرة، الآية٨٢، قوله تعالى:

"وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين".

٢. في سوره البقرة، الآية١٨٠، قوله تعالى:

"كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين".

٣. في سورة البقرة الآية ٢١٥، قوله تعالى:

"يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإنّ الله به عليم".

٤. في سورة النساء، الآية٣٦ قوله تعالى:

"واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين".

٥. في سورة النساء، الآية١٣٥، قوله تعالى:

"يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إنْ يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما".

٦. في سورة الأنعام الآية ١٥١، قوله تعالى:

"قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألاتشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا".

٧. في سورة الإسراء، الآيتان ٢٣-٢٤، قوله تعالى:

"وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربياني صغيراً".

٨. في سورة مريم، الآية الرابعةعشرة، قوله تعالى:

"وبَرّا بوالديه ولم يكن جباراً عصيا".

٩. في سورة العنكبوت، الآية الثامنة، قوله تعالى:

"ووصينا الإنسان بوالديه حسنا ، وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما، إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون".

١٠. في سورة لقمان، الآية الرابعةعشرة، قوله تعالى:

"ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير، وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما في الدنيا معروفا".

١١. في سورة الأحقاف، الآية الخامسة عشرة، قوله تعالى:

"ووصينا الانسان بوالديه إحسانا، حملته أمّه كرها ووضعته كرها، وحمله وفصاله ثلاثون شهرا".

١٢. في سورة الأحقاف، الآية السابعة عشرة، قوله تعالى:

"والذي قال لوالديه اف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك ءامن إنّ وعد الله حق فيقول ما هذا إلّا أساطير الأولين".

ويحسن قبل أن نمضي مع الدلالات البيانية في هذه الآيات الكريمة أن نذكر أن كلمة (والديّ) أي كلمة (والدان) مضافة إلى ياء المتكلم قد وردت في القرآن أربع مرات:

١. على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام في الآية ٤١ من سورة إبراهيم.
٢. وعلى لسان سيدنا سليمان عليه السلام في الآية ١٩ من سورة النحل.
٣. وعلى لسان الإنسان (أي إنسان) في الآية ١٥ من سورة الأحقاف.
٤. وعلى لسان سيدنا نوح عليه السلام في الآية ٢٨ من سورة نوح.

وفي هذه الآيات الكريمة تكرر دعاء الأنبياء عليهم السلام "رب اغفر لي ولوالدي" ودعاؤهم ودعاء الإنسان حيثما كان "رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي" وفي هذا دلالة واضحة على حرص الإنسان على والديه بأن يدعو لهما بالمغفرة والرحمة، وهذا تشريع إلهي ببرّ الوالدين يسوقه على لسان الأنبياء عليهم السلام، ويعلّمه للإنسان حيثما كان أن يكون هذا خلقه وسلوكه الذي لا يحيد عنه.

ويحسن أن نذكر أيضا أن كلمة (والدة) ذكرت ثلاث مرات في القرآن، اختصت في مرتين بالسيدة مريم عليها السلام والدة عيسى عليه السلام ، وفي الموضع الثالث كانت دلالتها عامة **"لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده"**(١٥)، كما ذُكرت كلمة الوالدات مرة واحدة عند الحديث عن إرضاع الأولاد، قال

---

١٥. البقرة : ٢٣٣.

تعالى: "**والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة**"(١٦).

٢. ٢. نظرات بيانية في آيات الوالدين

٢. ٢. ١. معنى كلمة (بيانية) في اللغة والاصطلاح

كلمة (بيانية) تعني الكشف عن كل ما يسهم في بيان دلالة الكلمة في سياقها في التركيب اللغوي. وإنما اخترت ما اختاره القرآن للتعبير عن هذه الفكرة فقال الله عز وجل: "**الرحمن، علم القرآن، خلق الانسان، علمه البيان**"(١٧)، فالبيان كلمة عامة الدلالة وهي كانت تعني هذا المعنى عندما نزل بها القرآن الكريم، قبل أن تتخذ معناها الاصطلاحي بعد أن بدأت تتضح قواعد العلوم ونظرياتها منذ بداية القرن الثالث الهجري.

والبيان – في اللغة – مصدر الفعل الثلاثي بان. يقال بان الشيءَ بياناً ظهر واتضح، وبان الشيءَ أوضحه وأفصح عنه فهو بائن وبيّن جمعه أبيناء. فالفعل على ذلك لازم ومتعد. وبنته بالكسر وبينته وتبينته وأبنته واستبنته أوضحته وعرفته فبان وبيّن وتبين وأبان واستبان كلها لازمة ومتعدية(١٨).

وقد اشتق المعنى الاصطلاحي للبيان من هذا المعنى اللغوي، ولكنه تحدد واتضح حتى صار مصطلحاً على علم له قواعده وأصوله في علم البلاغة. ولعل الجاحظ أول من اهتم بمعنى المصطلح واستعمله. ولله دره وهو يسمي كتابه "البيان والتبيين" وهو أحد الكتب الأربعة التي سار ذكرها في الناس واستغنى بها الناس عن حمل غيرها من الكتب. يقول ابن خلدون في مقدمته: "وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين: وهي أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع منها"(١٩) وفي النص على فضل كتاب البيان والتبيين للجاحظ يقول أبو هلال العسكري: " كثير الفوائد، جم المنافع، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة والفقر اللطيفة والخطب الرائعة والأخبار البارعة وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء وما نبه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة وغير ذلك من فنونه المختارة ونعوته المستحسنة إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه ومنتشرة في أثنائه فهي ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير"(٢٠) وفي مقدمة كتابه الكامل يقول أبو العباس المبرد: "هذا كتاب ألفناه ليجمع ضروباً من الآداب ما بين كلام منثور وشعر مرصوف ومثل سائر وموعظة بالغة واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة".(٢١)

---

١٦. البقرة :٢٣٣.

١٧. الرحمن :١-٤ .

١٨. الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة، **المعجم الوسيط**، مادة (بان).

١٩. ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، صفحة ٣٤٣.

٢٠. العسكري، **كتاب الصناعتين**، ص: ٥.

٢١. المبرّد، **الكامل** –الجزء الأول، صفحة ١.

وكثيراً ما يكون العنوان المناسب، المؤثر، للكتاب أو للبحث أو للمقالة سبباً في إقبال الناس عليه والاهتمام به، انظر- إن شئت - إلى سيبويه كم كان موفقاً وهو يسمي كتابه الكبير في النحو باسم (الكتاب) وإني لاحس بشعور خفي أن سيبويه كان يتأمل ويتدبر دلاله كلمة الكتاب في القرآن الكريم عندما اختار عنوان كتابه.

وإنما حرَصت على إثبات أوصاف كتاب الكامل للمبرد و كتاب البيان والتبيين للجاحظ، لكي انطلق منها إلىَ تأكيد أن كلمة (بيان) كانت تعني في البداية معنى عاماً هو ما عبر عنه الجاحظ نفسه بقوله : "الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي"(٢٢) وقد فسر هذا الإيجاز بتحديد دلالة البيان عنده بقوله: "اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته و يهجم على محصوله، كائناً ما كان هذا البيان ومن أي جنس كان ذلك الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع"(٢٣).

ولعمَري إن هذا كلام جامع، وبخاصة في هذه الجملة الأخيرة (فذلك هو البيان في ذلك الموضع) كأنما يقرر الجاحظ أن لكل سياق بيانا. و أن السياق هو الأصل في بيان الدلالة، فليس للكلمة قيمة أدبية ذاتية أو قيمة بيانية في أصل وضعها؛ بل إن الكلمة هي اللفظ الدال على المعنى المفرد كما يقول النحاة. وإنما تتخذ الكلمة قيمتها الدلالية من السياق الذي ترد فيه. انظر إلىَ كلمة (الحمار) ولعلها أكثر كلمة سوقية شعبية في الوطن العربي كله، و لكن عندما استعملها القرآن الكريم في سياقها الذي لا تغني فيه كلمة أخرى عنها، صارت الكلمة جليلة في موضعها غنية في بيانها "**مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله و الله لا يهدي القوم الظالمين**"(٢٤).

من هنا نقول إن البيان له معنيان:

المعنى الأول:

هذه الدلالة العامة التي تحدث عنها الجاحظ وتحدث عنها غيره، بل تحدث عنها القرآن في آياته وسوره عندما استعمل كلمة البيان وكلمة التبيان ، والفعل بيّن مسنداً إلى كثير من ضمائر التكلم و الخطاب والغياب، كذلك استعمل ماضياً ومضارعاً وأمراً، فضلا عن العديد من مشتقات الفعل في سياقاتها المختلفة وأوزانها المتعددة، وقد وردت هذه المادة (٢٥٦) مرة في القرآن الكريم(٢٥).

والبيان في هذا المعنى هو محاولة الكشف عن دلالة التركيب اللغوي بكل أدوات الكشف

٢٢.الجاحظ، **البيان والتبيين** ١/٧٥.

٢٣. المرجع السابق ١/٧٦.

٢٤. الجمعة : ٥.

٢٥.عبد الباقي، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، مادة (بان).

المتاحة، وبكل معطيات الأنماط اللغوية المتعددة.

ومن هذه الأنماط اللغوية:

١. اختلاف صيغ الأفعال بين الماضي والمضارع والأمر.
٢. دلالات التقديم والتأخير.
٣. التعريف والتنكير.
٤. الإفراد والتثنية والجمع.
٥. تنوع الحروف وتعدد مجالات استعمالها.
٦. تنوع الأسماء في مواقعها الإعرابية المختلفة.
٧. تنوع الصيغ الصرفية في التراكيب اللغوية.
٨. جرس الحروف والأصوات في الألفاظ والتراكيب.
٩. حركات الإعراب ومعانيها.
١٠. تعدد صيغ القسم.
١١. أساليب النداء والاستفهام والأمر والنهي والرجاء والتمني والتوكيد والنفي[٢٦].

إن محاولة تدبر الدلالات من خلال هذه الأنماط اللغوية يمكن أن يصل بالقارىء إلى إدراك معانٍ عميقة وأفكار دقيقة، من خلال التحديق في النصوص اللغوية. وعندما يكون الأمر متعلقا بالقرآن الكريم، فإن تدبر آيات القرآن يصل بالقارئ إلى آفاق رحبة من شواهد الإعجاز القرآني، وصور من البيان التي لا تنتهي عجائبها.

المعنى الثاني :

هي الدلالة الخاصة لكلمة البيان، أي المعنى الاصطلاحي، وهو عند علماء البلاغة: علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه[٢٧].

وقد حصر البلاغيون أصول علم البيان في أربعة، منها أصلان ذاتيان وهما: المجاز والكناية، وأصل واحد وسيلة وهو: التشبيه، وواحد جزء من أصل وهو: الاستعارة.

وأحسب أن النظر في إعجاز القرآن الكريم يستخدم هذه الوسائل كلها للوصول إلى المعنى المراد. بل هو عند أهل الذوق والفصاحة والبيان: إحساس يسري في الجسم يُشعِر المرء بمتعة التذوق وطمأنينة الوصول إلى اليقين، وبهجة الوصول إلى أعماق الدلالة القرآنية. وهذه حالة من الفهم والوعي والإحساس بالنشوة والدهشة والاستنارة، لا تأتي إلا لمن ملك الخبرة في تدبر آيات الله عز وجل، مزودا بقدر كاف من الوعي بالأساليب اللغوية وتنوع أنماطها، خبيرا بأساليب البيان العربي، ووسائل القوم في التعبير عن انفعالاتهم وأفكارهم في شؤون الحياة المختلفة.

بهذه الوسيلة – إذن – نرجو أن ننظر في الآيات الكريمة التي تحدثت عن جانب من جوانب التشريع المهمة في الحياة الاجتماعية الإنسانية. تلكم هي علاقة الوالدين بأولادهما، وعلاقة الأولاد بآبائهم، وحقوق كل فريق تجاه

---

[٢٦] أبو عودة، **شواهد في الإعجاز القرآني**، صفحة ٣٦.

[٢٧] طبانة، **البيان**، صفحة ٢٣.

الآخـــر وواجباته، وهو أمر يشكل الأساس الأهم في بناء المجتمع الإسلامي.

٢٠٢٠٢- تحليل آيات الوالدين في سورة الإسراء.

سأجعل – إن شاء الله – من آيتي سورة الإسراء أصلا أعتمد عليه في هذه الدراسة التطبيقية لإبراز شواهد الإعجاز القرآني في التشريع الإلهي لطاعة الوالدين وبرهما، فيما يمكن أن يعد نموذجا ومثلا من أمثلة الاعجاز التشريعي في القرآن الكريم.

في هاتين الآيتين يقول الله عز وجل:

"وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً"(٢٨).

أما الآيات القرآنية الأخرى التي تحدثت عن حقوق الوالدين – وقد ذكرتها آنفا – فسأعود إليها كلما لزم الأمر من أجل توضيح فكرة أو تأييد نموذج من نماذج الإعجاز القرآني في هذا الموضوع.

وينبغي في البداية أن أوضح حقيقة قرآنية تؤيدها وتوضحها الآيات القرآنية التي تحدثت عن علاقة الآباء والأبناء. تلك هي أن الله عزّ وجل أقام هذا الكون العظيم الذي خلقه فأحسن خلقه وقدره فأحكم تقديره على نوعين اثنين من الجاذبية:

الأولى: الجاذبية الكونية

وهي الجاذبية التي تشد الكواكب والنجوم والأجرام السماوية بعضها إلى بعض في تقدير إلهي محكم. وهذا أمر مشاهد ملحوظ منذ خلق الله الأرض ومن عليها. وعلى أساس منه قامت مختلف العلوم الكونية التي تتحدث عن علاقة الأرض بغيرها من الكواكب، وعلى أساس منه أيضا قامت كثير من التجارب الإنسانية في محاولة كشف الفضاء والسفر إليه، وتعرف عوالم جديدة من خلق الله عز وجل.

الثانية : الجاذبية الإنسانية

هي الشعور بالمحبة والرحمة الذي أودعه الله عز وجل قلوب عباده بل قلوب كل أصناف خلقه. هذا الشعور الذي به يرحم الوالد ولده، والأم ولدها، والولد والده ووالدته في إطار من الإحساس بالمحبة الحقيقية، التي لا تستطيع قوى الأرض المادية كلها أن تنال منها عندما توضع العلاقة الإنسانية بين الوالدين والأبناء في الامتحان الحقيقي. إن هذه الجاذبية الإنسانية هي التي تنظم علاقة الناس بعضهم ببعض، لأن الناس – كل الناس، وفي كل زمن- هم في الأصل وفي النموذج المتكرر في كل بيت هم والد وما ولد. وكل والد يرى ولده اللؤلؤة المضيئة والدرة الفريدة، وهو مستعد لكي يدفع عمره ثمناً لسلامة ولده وسعادته، في الوقت الذي لا يستطيع أيما والد مهما أوتي من رقة القلب وشدة الاحتمال أن يتحمل ولدَ غيرِه أكثر

---

٢٨. الإسراء:٢٣-٢٤.

من دقائق معدودات، يجامل فيها صديقه أو يتحنن فيها على طفل فقد مصدر الحنان الطبيعي الذي يرعاه حق الرعاية. إن العواطف لا تزيف وإنه دون هذه العاطفة الصادقة الصحيحة في قلب الوالد تجاه ولده لا تتم الرعاية و لا التربية الصحيحة. ولو لم يكن ذلك كذلك لما استقامت الحياة الإنسانية على سطح الأرض. ولا يهولن امرءاً هذا الحكم، فإنه لو عاد إلى نفسه فامتحنها لوجد عندها صدق اليقين.

ولقد حدَّثَنا القرآن الكريم عن حالة وحيدة اضطرت فيها أُمّ أن تربي غير ولدها، فلم تستطع ذلك إلا بعد أن ألقى الله عز وجل على هذا الولد في قلبها محبة منه لكي تشعر أنه ولدها الحقيقي. وهذه قدرة لا يملكها الا الله عزّ وجلّ. ذلكم هو سيدنا موسى عليه السلام إذ أوحى الله عزّ وجلّ إلى أمه أن تلقيه في اليم فالتقطه آل فرعونْ فألقى الله عزّ وجلّ عليه محبة امرأة فرعون – رضي الله عنها– لكي ترعاه رعاية الأم ولدها. وشاء تدبير الله عز وجل أن يعود الطفل إلى أمه الحقيقية عندما رفض الطفل أن يقبل غيرها من المراضع، يقول الله عز وجل: "**إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى، ان اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني، إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن ...**"(٢٩). إن هذه حقيقة ساطعة في كتاب الله عز وجل، وعليها قام بناء العلاقة الأسرية بين الوالدين والأبناء وما ينبغي من كل منهما على الآخر من حقوق وواجبات، وعلى هذا الأساس سننظر في الدلالات البيانية في الآيات القرآنية الكريمة.

"**وقضى ربك**"، يقال في اللغة: قضى يقضي قضياً و قضاء وقضيّة: حكَمَ و فَصَلَ وقضى الله أمره وقضى إليه أنهى إليه أمره(٣٠). ويقال في اللغة أيضا قَدَرَهُ جعله بِقَدَرْ وقَدَرَ الشيءَ بالشيء قاسه به، وجعله على مقداره، وقدر الله الأمر على فلان جعله له وحكم به عليه. والقدَر في معاجم اللغة مقدار الشيء وحالاته المقدرة له، ووقت الشيء أو مكانه المقدرله والقضاء الذي يقضي به الله على عباده وجمعه أقدار(٣١).

وهكذا نرى أن القدر في معاجم اللغة هو القضاء. وليس هذا بالقول الدقيق؛ فقد فرق القرآن الكريم بين القضاء والقدر، وأود قبل تعريف القضاء والقدر– بإيجاز– أن أشير إلى أن هذا الموضوع كان ومازال من الموضوعات الشائكة التي يختلط فيها القول كثيراً. وتختلط فيه الآراء، ولو أن الباحثين اتخذوا منهاجاً محددا في البحث في المصطلحات القرآنية لاهتدوا إلى الدلالة الدقيقة بين هذين المصطلحين: القضاء والقدر. فالقضاء هو ما سبق في علم الله من الهيئة والكيفية التي سيكون عليها الخلق بكل ما

---

٢٩. طه:٣٩-٤٠.

٣٠. مجمع اللغة العربية بالقاهرة،**المعجم الوسيط**، مادة قضى.

٣١. المرجع السابق ، مادة قدر.

تشمله كلمة الخلق من معنى، وهو ما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "فرغ ربكم من الخلق والأجل والرزق"[٣٢] وأما القدر فهو ما يحدث حالاً بحال مما قدر الله أن يكون، وقولنا إن القضاء هو ما سبق في علم الله إن هو إلا تعبير يتلاءم مع علمنا وحدودنا نحن بني البشر والخاضعين لحدود الزمان والمكان، أما أيهما أسبق من الآخر القضاء أم القدر عند الله فذلك ما لا يجوز فيه السؤال والبحث؛ لأنهما في إرادة الله عز وجل، والله عز وجل خارج عن قياس الزمن؛ لأنه تعالى هو خالق الزمن وخالق الآلة التي يتكون بها الزمن[٣٣].

وعندما نقرأ الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة في هذا الموضوع نجد أن الله عز وجل أراد بالقضاء الإرادة والحكمة الإلهية في خلق هذا الكون حسب ما شاءه سبحانه وتعالى وأراده، وأن القدر هو ما يتحقق من هذا القضاء حالا بعد حال.

إنّ هذا يعني أن طاعة الوالدين والإحسان إليهما في تشريع الحياة الإنسانية المنزل من عند الله عز وجل هو من قضاء الله، أي هو من الأصول والثوابت التي تشكل فيها القضاء. وأن ما يقوم به أفراد الناس في هذه الدنيا من بر الوالدين أو عقوقهما، إنّما هو من القدر الذي يتشكل حالا بعد حال في أثناء حياة الناس اليومية المتلاحقة. فأي منزلة إذن وضعتها الآيات القرآنية لطاعة الوالدين؟ أرى ألا نقول شيئاً سوى أن طاعة الوالدين والإحسان إليهما حقيقة راسخة وأصل ثابت في تنظيم الكون كغيرها من الحقائق والأصول، مثل الإيمان بالله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتقاد بالقضاء والقدر والملائكة والكتب السماوية واليوم الآخر، يقول الزمخشري: "ولقد بالغ سبحانه وتعالى بالتوصية بهما حيث افتتحها بأن شفع الإحسان إليهما بتوحيده ونظمهما في سلك القضاء بهما معاً"[٣٤].

إنّ هذه الدلالة هي ما يفهم أو ما ينبغي أن يفهم من اختيار الله عز وجل لكلمة (قضى)، دون غيرها من الكلمات أو الأفعال التي يظن خطأ أنها ترادفها أو أنها تؤدي معناها، مثل: فَرَضَ أو أمَر أو شاء أو شَرَعَ، أو غيرها من الأفعال المشابهة لها في عموم الدلالة. ونحن في بحث الإعجاز القرآني نبحث عن الدلالة الخاصة التي بها يتحقق منهج القرآن الكريم الفريد في البيان والإعجاز.

مثل هذا نقوله في اختيار كلمة (ربك) دون غيره من أسماء الله الحسنى. وحديث أسماء الله الحسنى و دلالة كل منها بحث طويل، وقد كُتبت فيه عدة كتب أرى أنها لم تصل إلى مستوى البحث العميق الجاد. وإننا ما نزال ننتظر بحثاً علمياً جاداً يبين حقيقة الدلالة الخاصة بكل اسم من أسماء الله الحسنى، وارتباط كل اسم بحقيقة هذا الدين وأحكامه، ويوضح كذلك ما يمليه

---

[٣٢] الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، صفحة ٤٠٣.

[٣٣] أبو عودة، **التطور الدلالي**، صفحة ١٣٢.

[٣٤] الزمخشري، **الكشاف عن حقائق التنزيل**، المجلد الثاني، صفحة ٤٤٤.

الإيمانُ بكل اسم وإحصاء دلالاته ومعانيه على كل فرد في سلوكه العملي وعبادته الصحيحة.

وكلمة (رب) وما اشتق منها هي أكثر الكلمات انتشاراً في القرآن الكريم بعد لفظ الجلالة (الله)، ولم ترد الكلمة معرفة بأل التعريف بل وردت معرفة بالإضافة إلى الاسم الظاهر، مثل رب العالمين و رب السموات ورب العرش ... الخ، أو مضافة إلى الضمائر مثل: ربك و ربكم وربكما و ربنا .. الخ، وهي تعني في القرآن الكريم: رب الناس ورب العالمين ورب كل شيء الخالق الذي لا يزال مشرفاً على خلقه؛ يرعاهم ويدبر أمورهم بعناية ومحبة كما يربي ولي الأمر من هم في رعايته. ولذلك نذكر كلمة (رب) في معرض الحديث عن الإله الخالق الذي يحب لخلقه الهداية والرشد(٣٥) ومن هنا قوله تعالى: **'و قضى ربك'** في الآية التي تحث على الإحسان إلى الوالدين مناسباً لموضوع الآية لما يفيض على القلب من إحساس بالعطف والرحمة وهو يقرأ قوله عز وجل عن بر الوالدين والإحسان إليهما.

١. "ألا تعبدوا إلاّ إياه"

وهذا أيضا تعبير فريد لافت للنظر يخالف التعبير المألوف في مثل هذا الأمر؛ فالتعبير العادي أن يقال: "وقضى ربك أن تعبدوه" ولكن القارىء يلاحظ فرقاً شاسعاً في الدلالة والمعنى بين التعبير القرآني وتعبير الناس هذا العادي. إن التركيب القرآني "ألا تعبدوا إلا إياه" فيه أولا أمر بالعبادة، أي إن الإنسان يجب أن يكون عابداً. فليست العبادة أمراً اختيارياً نعبد أو لا نعبد بل ينبغي للإنسان أن يعبد، وهذا مفهوم قوله عز وجل **"وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون"**(٣٦).

فإذا تقرر هذا فإن العبادة محصورة بالله عز وجل كما حصرت الألوهية بالله سبحانه "لا إله إلا الله". وأشعر أن في اختيار ضمير النصب (إياه) مزيداً من التخصيص والحصر. وفي تركيب (ألا تعبدوا إلا إياه) دلالة أشد وضوحاً من قولنا (لا تعبدوا إلا هو) فإن الضمير إياه يشعر بالقرب والملكية أكثر من الضمير (هو) الذي يشعر بالبعد والغياب. وبدهي أننا نرى الآن أن التركيب القرآني **"ألاّ تعبدوا الا إياه"** لا يقارن به قولنا القاصر(أن تعبدوه) لأن هذا القول لا يمنع الذي يوجه إليه – من الناحية اللغوية- أن يعبده وأن يعبد غيره.

٢. "وبالوالدين إحسانا"

فرقت آيات القرآن الكريم في الدلالة بين تعبير (الوالدين) وتعبير (الأبوين) أو (الآباء)، وهذا أمر بدهي لوجود اللفظين كليهما في القرآن الكريم. إن استقراء كلمة أب بصيغة المثنى مضافة إلى ضمير الغائب (أبواه و أبويه) و المخاطب (أبويك) والمخاطبين (أبويكم)، واستقراءها بصيغة الجمع (آباء) مضافة أيضا إلى عدد من الضمائر كضمائر المخاطبين

---

٣٥. أبو عودة، **التطور الدلالي**، ص:(١٢١-١٢٧)

٣٦. الذاريات :٥٦.

والمتكلمين والغائبين والغائبات والمخاطب والغائب، يدل على أن هذه الكلمة قد استخدمت في القرآن الكريم بكثرة للدلالة على الآباء الممتدين عبر السنين. واستخدمت بقلة للدلالة على أبوي المرء المباشرين.

ويستطيع الباحث غالباً أن يتلمس الحكمة في ذلك وبخاصة عندما يمكن أن ينوب الجد عن الأب المباشر في الحكم الشرعي كما في حالة الميراث مثلاً، يقول الله عز وجل: "**ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلإمه الثلث**"(٣٧). ويلاحظ في الآية الكريمة أن الأم دخلت في دلالة تعبير أبويه، أما الاستخدام الشائع لكلمة (آباء) فهو دلالة على الآباء الممتدين عبر الزمن الطويل مثل قوله تعالى:

"**قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان اباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون**"(٣٨).

"**إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان**"(٣٩).

"**أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا**"(٤٠).

أما كلمة (الوالدين) فهي تدل على الوالدين المباشرين للمرء وهما محل التكليف وموئل الرعاية و الإحسان من أولادهما.

ولما كانت هذه الآية الكريمة تشرّع للإحسان للوالدين و برهما، فكان من جميل الدلالة أن تختار كلمة (الوالدين) دون الآباء، لأن المرء بفطرته لا يطيق أن يرعى غير والده، أو أن يرعى والد غير ولده رعاية تامة تستقيم بها الحياة الإنسانية.

ويتبع هذا أن (الأولاد) في القرآن غير (الأبناء)، فدلالة (الأبناء) تشبه دلالة الآباء في أنهم الأبناء الممتدون عبر السنين، على حين تقتصر دلالة الأولاد على الأولاد المباشرين لوالديهم. يقول الله عزوجل في دلالة الأبناء:

"**زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين**"(٤١).

"**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم**"(٤٢).

"**آباؤكم وأبناؤكم لاتدرون أيهم اقرب لكم نفعاً**"(٤٣).

أما الأولاد فهم الأبناء المباشرون لآبائهم، و هم المسؤولون عن رعاية آبائهم في التشريع الإسلامي. ورعاية آبائهم واجب عليهم يقومون به تنفيذا لأمر الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ. وقد نصت على هذا الواجب آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة وأحكام الأسرة في الفقه الإسلامي، و قد لا يتسع مجال هذا البحث لسوق الأدلة على ذلك، أو على غيره من الأحكام، لأنه

---

٣٧. النساء : ١١.
٣٨. البقرة :١٧٠ .
٣٩. النجم : ٢٣.
٤٠. الاعراف :٧٠.
٤١. آل عمران :١٤.
٤٢. البقرة :١٤٦ والانعام: ٢٠.
٤٣. النساء :١١.

بحث في الكشف عن الإعجاز القرآني في أنماط التراكيب اللغوية القرآنية، وهذا ما يسمح لنا بالتمثيل بآيات القرآن الكريم. يقول الله عز وجل في هذه الآية الجامعة التي ذكرت: الوالدات الوالدة والأولاد والمولود والولد في أوفى شاهد على دلالة الولد المختلفة عن دلالة الابن في القرآن الكريم. يقول الله عز وجل:

"والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة، وعلى المولود له رزقهن و كسوتهن بالمعروف، لا تكلف نفس إلا وسعها، لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده و على الوارث مثل ذلك، فإن أرادا فصالا عن تراض منهما و تشاور فلا جناح عليهما و إن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف، واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير"(٤٤).

و يقول الله تعالى: **"يا أيها الناس اتقوا ربكم و اخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً..."**(٤٥).

ومازلت منذ بعض الوقت، أنعم النظر في هذه الآية الكريمة، و أتساءل عن السر في اختيار كلمة (مولود) بدلا من (ولد) عندما رد الله عز وجل نهاية الآية على بدايتها، فقال **"ولا مولود هو جاز عن والده شيئا"** ولم يقل (ولا ولد هو جاز عن والده) مع أن هذه الآية في البداية ذكرت (ولد) في قوله تعالى: **"لا يجزي ولد عن والده"** ترى هل لأن كلمة ولد هذه يمكن أن تتسع للولد المباشر وللأولاد جميعاً منه ومن أبنائه فأراد الله عز وجل أن يحدد دلالة ولد بالمولود له فقط وليس لغيره من الولد؟

ويحسن أن نشير أيضا إلى أن القرآن الكريم عبّر بكلمة (الأم) عن الأم المباشرة وغيرها. وقد وردت في القرآن تعبيرات أم القرى و أم الكتاب إضافة إلى الأم الحقيقية. ولكن عند إرادة تخصيص العلاقة المباشرة التي لا تتحمل الشك ذكر الله عز وجل كلمة (والدة) مع سيدنا عيسى عليه السلام وذكر (الوالدات) عند الحديث عن رضاعة الأولاد.

أما كلمة **إحساناً** فإنها تظهر بوضوح خصوصية التعبير القرآني، وأن القرآن يستعمل الكلمة الأكثر مناسبة في مكانها المناسب، وبذلك تكون أي كلمة غيرها لا تؤدي معناها ولا تقدم دلالتها. وصيغة (إحساناً) هي إحدى صيغ الأمر باللغة العربية. والأمر عند العرب هو طلب حصول شيء لم يكن حاصلا عند الطلب ويكون على وجه الإلزام. وعلى هذا قالوا إن الأمر هو ما إذا لم يفعله المأمور به سمي المأمور به عاصياً، وهو عند البلاغيين طلب الفعل - غير الكفّ - على جهة الاستعلاء مع الإلزام، وللأمر أربع صيغ:

١- فعل الأمر، نحو: اتبع أمري.
٢- المضارع المقترن بلام الأمر، نحو: لِتَفِ بوعدك.
٣- اسم فعل الأمر، نحو: عليك بالصدق.

---

٤٤. البقرة: ٢٣٣.

٤٥. لقمان :٣٣.

٤– المصدر النائب عن فعل الأمر، نحو: صبراً على الشدائد(٤٦).

ولعل هذا الترتيب لصيغ الأمر في العربية متفق مع درجة شيوع هذه الصيغ في اللغة. ولم أقف – فيما أعلم – على دراسة تناولت مثل هذا الموضوع. ولكن المرء عندما يؤلف في موضوع ما تجده يتأثر تلقائيا بالأمر الشائع في مجاله دون أن تكون هناك دراسة خاصة تفسر توجها ما دون الآخر. وعلى الرغم من ذلك فإن الصيغة الأخيرة، صيغة المصدر النائب عن فعله هي الصيغة الأكثر شيوعا في الآيات التي تحث على بر الوالدين والإحسان إليهما. وقد وردت هذه الصيغة "**وبالوالدين إحسانا**" أربع مرات، وفي الموضع الخامس ورد قوله تعالى: "**ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا**"، وفي موضع سادس قال الله عز وجل: "**ووصينا الإنسان بوالديه حسنا**"، ولم يرد الأمر ببر الوالدين بغير هذه الصيغة في القران الكريم، سوى ما كان من طلب المغفرة لهما من سيدنا نوح وسيدنا إبراهيم عليهما السلام.

والإحسان، كما هو معروف، هو أعلى درجات العمل. وقد ذكره الرسول ﷺ في حديثه المشهور بعد الإسلام وبعد الإيمان : "... قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: أنْ تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك..."(٤٧).

وأنا انظر إلى كلمة (إحسانا) في الآية الكريمة من ناحيتين:

الأولى: من جهة أنه في المنزلة العليا من العمل. وهذا يشعر بان بر الوالدين يجب أن يكون في أعلى درجات الإحسان والإتقان، وهو في الوقت نفسه من أجل الأعمال التي تعود على صاحبها بالفضل والخير، و"**هل جزاء الإحسان إلا الإحسان**" (٤٨).

الثانية: من حيث إنه جاء بصيغة المصدر لا بصيغة الفعل ولا بصيغة اسم الفعل. ومن المعروف أن الفعل في الاصطلاح ما دل على معنى في نفسه مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة(٤٩) وهذا يدل على أنّ الاسم يدل على حدث غير مرتبط بزمن. والإحسان مصدر الفعل أحسن. وإنّ ورود الأمر بالإحسان إلى الوالدين بصيغة المصدر يشعر بأن الإحسان إلى الوالدين حدث أساسي غير قابل للارتباط بالزمن بحيث يكون أو لا يكون، بل هو أمر مقرر مرسوم، دائم ثابت، وحقيقة راسخة خالدة يقوم عليها نظام العلاقة الإنسانية الوثيقة بين الناس. وثمة ملاحظة أخرى في هذا المصدر النائب عن فعله، ذلك أنه يفيد تأكيد مضمون فعله، ويرى النحاة أن المصدر بهذا الأسلوب يأتي مؤكدا لفعله أو مبينا لنوعه أو لعدده، وهو هنا يؤكد فعله ويعززه.

ويلاحظ أيضا أن الآيات التي تحدثت عن الأمر بالاحسان إلى الوالدين كانت كلها بصيغة

٤٦.طبانة، **معجم البلاغة العربية**، صفحة ٤٧.

٤٧. البخاري، **صحيح البخاري** الجزء الاول – صفحة ٢١٨ ومسلم، **صحيح مسلم** الجزء الاول – صفحة ٢٨-٢٩.

٤٨.الرحمن:٦٠.

٤٩.ابن هشام، **شرح شذور الذهب** – صفحة ١٨.

المصدر (إحسانا) إلا آية سورة العنكبوت "ووصينا الانسان بوالديه حسنا". وحسنا هذه مصدر للفعل (حَسُنَ) اللازم. وفي معاجم اللغة: حَسُنَ يَحْسُنُ حُسْنا جَمُل فهو حَسَنٌ وهي حسناء جمعها حِسان للمذكر والمؤنث وأحْسَنَ فَعَلَ ما هو حَسَنٌ وأحسن الشيءَ أجاد صنعه وأتقنه، وأحسن إليه وبه فعل ما هو حسن[٥٠]. وفي هذا التحليل اللغوي دلالة كاشفة عن سبب اختيار (إحسانا) في آيات الوالدين، فهو مصدر لفعل متعد أي يحث على القيام بالفعل .

أما (حسنا) فقد استخدمت عندما كان المراد أن تكون معاملة الولد لوالديه حسنة، غير مؤذية، وبخاصة إذا كانا لا يستحقان المعاملة بالإحسان، كأن يكونا كافرين لا يوافقانه في دينه الإسلام، لذلك جاء في تتمة الآية نفسها "**وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما، إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون**"، فكأن المطلوبَ أنْ يكون المرء مهذبا مع والديه وإن كانا على غير دينه، فهذه سماحة الإسلام وصفته وأخلاقه .

٣. "**إمّا يبلغن عندك الكبر...**"

هذا تركيب عجيب، وفي كل من كلماته الأربع دلالات عميقة. وتركيب (إما يبلغن) يتألف من (إنْ) الشرطية و(ما) التي قالوا إنها زائدة للتوكيد وما هي بزائدة، والفعل المضارع المؤكد بنون التوكيد الثقيلة، وإما هذه يرد معها الفعل مؤكدا دائما ... مثل:

"**فإما يأتينكم مني هدى...**"

البقرة ٣٨ وطه ١٢٣

"**وإما ينسينك الشيطان...**"

الأنعام ٦٨

"**يا بني آدم إما ياتينكم رسل...**"

الأعراف ٣٥

"**وإما ينزغنك من الشيطان نزغ...**"

الأعراف ٢٠٠ وفصلت ٣٦

"**فإما تثقفنهم في الحرب...**"

الأنفال ٥٧

"**وإما تخافن من قوم خيانة ...** "

الأنفال ٥٨

"**وإما نرينك بعض الذي نعدهم ...**"

يونس ٤٦ والرعد ٤٠

"**وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك...**" الإسراء ٥٨

"**فإما ترين من البشر أحدا...**" مريم ٢٦

"**فإما نذهبن بك ...**" الزخرف ٤١

والإصرار على هذه الصيغة في القرآن الكريم يدل على أنّ لها دلالات ذات معنى عميق. وقد اختلف فيها النحاة كثيراً، فقالوا إن (إمّا) مركبة من إن الشرطية وما المزيدة لتأكيدها. ثم قالوا إنّ تركيب (إمّا) هو الذي أجاز لحوق النون المؤكدة بالفعل، وإنْ أفردت لا يصح توكيد الفعل. ثم اختلفوا حول وجوب

---

٥٠. مجمع اللغة العربية بالقاهرة، **المعجم الوسيط**، مادة حسن.

لحوقها بالفعل كما يرى أبو إسحق الزجّاج(٥١) أم جوازه كما يرى سيبويه.

واستشهد كل منهم لرأيه بشواهد، وأنا أرى أنّ هذا التركيب المتكرر في القرآن يحتاج إلى بحث خاص، مع التنبيه على أنّ الزيادة في القران أصبح لها الآن تفسير أكثر دقة وانسجاما مع أسلوب البيان القرآني .

على أن هذا التركيب يشعر بالرهبة والجلال والجد والاهتمام، وفيه توكيد بلوغ الأبوين، أحدهما أو كلاهما عند أولادهما الكبر.

والفعل (يبلغن) فيه دلالة الجهد الكبير والدرب الطويل الذي سار فيه الوالدان طوال السنين. ولك أن تتصور شيخين كبيرين، حناهما الدهر، وأنهكتهما الأيام ، يدبان على الأرض دبيبا حتى وصلا بعد عناء وجهد مستمرين حد الكبر، لكأنّهما كانا يسعيان إلى الكبر، على الرغم من أن الإنسان قد لا يحب ذلك، ولكن كدّ الأيام والسنين أوصلهما إلى ذلك.

على أنّه في آيات أخرى كان (الكبر) فاعلا وليس مفعولا به كما هو هنا في هذه الآية الكريمة. هو الفاعل في كلام سيدنا زكريا عليه السلام: "**قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر**"(٥٢) كأن سيدنا زكريا عليه السلام يعتذر عن الحال التي هو عليها، وأن الكبر فاجأه وأنه لا ذنب له. وكذلك هو على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام: "**قال ابشرتموني على أنْ مسني الكبر فبم تبشّرون**"(٥٣)، وانظر إلى دلالة (مسنى الكبر) كأنه لم يبلغ في الكبر مبلغا كبيرا.

وفي كلمة (عندك) لطيفة قرآنية عجيبة وبخاصة عندما تلاحظ أنها تقدمت على كلمة (الكبر). وفرق كبير في الدلالة بين قوله تعالى: "**يبلغن عندك الكبر**" وقولنا (يبلغن الكبر عندك) فالآية الكريمة تدل على أن الوالدين هما أساسا وابتداء عند ولدهما، لم يخرجهما إلى بيوت العجزة، ولم يضعهما عند كبرهما في بيوت المرضى والمقعدين. إنما هما (عنده) وفي رعايته وفي جواره.

ويروى بهذه المناسبة انه قيل لاحد العلماء: أين تجد الجار قبل الدار في القرآن الكريم؟

قال: في قوله تعالى: "**وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون، إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة، ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين**"(٥٤)، فطلبت الجار قبل الدار(٥٥).

وفي (عندك) لطيفة أخرى تلحظ من السياق، وهي أنها تخاطب المفرد على حين كان الخطاب قبلها للجمع (ألا تعبدوا إلا إياه)، فكان المتوقع أن يكون التعبير: إما يبلغن عندكم الكبر، وأرى أن في هذا الإفراد تخصيصا وتحديدا لمسؤولية رعاية الوالدين، لكي يعرف كل ولد أنه هو المقصود لا غيره، حتى لا تضيع المسؤولية بين

---

٥١. الألوسي، **روح المعاني**- الجزء الخامس عشر، صفحة ٥١.

٥٢. آل عمران :٤٠.

٥٣. الحجر:٥٤.

٥٤. التحريم:١١.

٥٥. الحلبي، **حسن التوسل إلى صناعة الترسل** ، صفحة ٧٢.

الناس، وحتى لا يُلقي كل ولد التبعة على الآخر.

إنّ كل ولد مسؤول عن رعاية والديه، وهي مسؤولية فردية على حين أنْ تكون العبادة عامة في الناس، فعبادة الله عز وجل واجبة على كل فرد، لا يغني فرد عن غيره فيها وهي لا تتأثر في الوقت نفسه بعصيان فرد أو أكثر من الناس.

أما رعاية الوالدين فهي واجبة على الولد ولا يقوم بها غيره من الناس ولذا قال الله عز وجل له (عندك) ولم يقل (عندكم). يقول الإمام الألوسي: "وتوحيد ضمير الخطاب في (عندك) وفيما بعده مع ان ما صرّح به فيما سبق على الجمع للاحتراز عن التباس المراد وهو نهي كل أحد عن تافيف والديه ونهرهما فانه لو قوبل الجمع بالجمع أو التثنية بالتثنية لم يحصل ذلك"(٥٦).

وفي كلمة (الكبر) تذكير إلهي بحالة الضعف والوهن التي وصل إليها الوالدان بعد أن كانا يملآن الأرض حيوية ونشاطاً، فهما الآن بحاجة ماسة إلى رعاية أولادها، وبخاصة أن الأولاد في هذه السن أقرب إلى حال العقوق والإعراض من حال البر والإحسان إلّا من رحم ربك .

٤. "أحدهما أو كلاهما"

هذا بيان القرآن الكريم وهذا إعجازه. وهذا مَثل على هذا الربط الوثيق بين التركيب اللغوي وبين خبايا النفس الإنسانية وصور الحياة الاجتماعية، ولو أنّ أهل الأرض جميعا – وليس الأدباء والكتاب فقط – أرادوا أن يصوغوا نصا يتحدث عن رعاية الوالدين لما تنبهوا إلى هذه الحقيقة التي لا يعلمها إلا الله عز وجل؛ لأنه جل شأنه خالق الإنسان وهو الذي يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

ذلك أنه في الحياة العملية والواقعية نجد أن معظم الأسر يكون فيها أحد الوالدين على قيد الحياة، ويكون رفيقه الثاني قد سبق إلى رحاب الله. وقل أن يكون الوالدان كلاهما حيين في حياة ولدهما الذي يرعاهما أو يكون كلاهما قد فارق الحياة، ولو أنّ كلا منا قد استعرض في ذاكرته الآن بعض الأمثلة من محيط أسرته الكبيرة أو عشيرته لوجد أن النص القرآني يمثل تمام التمثيل واقع الحياة الإنسانية.

وارتباط الأمر بالوالدين يزيد من الشعور بالدهشة من هذا التعبير، ذلك أن المرء لو ترك لعاطفته وهو يتحدث عن ضرورة رعاية الوالدين، لصور الأمر بكل أساليب العطف والحنان على الوالدين كليهما، ولا يخطر بباله مطلقا أنه يمكن أن تكون حالة الإفراد لأحدهما هي الحالة الغالبة.

٥. "فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما"

بقي في الآيتين الكريمتين من سوره الإسراء نهيان وثلاثة أوامر، ويحسن أن نعرضها مجتمعة ثم نناقش كلا منها على حدته:

١- **فلا تقل لهما أف.**
٢- **ولا تنهرهما.**
٣- **وقل لهما قولا كريما.**
٤- **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة.**
٥- **وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا.**

---

٥٦. الألوسي، **روح المعاني** – الجزء الخامس عشر، صفحة ٥١-٥٢.

والنهي في البلاغة "طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء، وله صيغة واحدة هي لا الناهية مع الفعل المضارع"(٥٧). والأمر هو "طلب الفعل على وجه الاستعلاء مع الإلزام".

والنهي لا يكون – غالبا – إلا عن شيء واقع حقيقة. وهذا النهي في الآية الكريمة يصور واقعا اجتماعيا قائما بالفعل. فالوالدان معرضان لأن يقابلا بالإعراض والجحود والعقوق من بعض الأولاد، والله عز وجل ينهى عن الإساءة للوالدين، ولو كان بقول (أف) لهما. وقد أطال المفسرون في شرح كلمة (أف) ومن الحديث عن صورها اللفظية وحكمها النحوي، مما لا أجد داعيا هنا للتفصيل فيه. ولكنهم رأوا أن في (أف) الدرجة الأدنى أو الأقل في حالة التبرم بالوالدين. يقول الإمام القرطبي: " فلا تقل لهما أف أي لا تقل لهما ما يكون فيه أدنى تبرم" (٥٨). ولكني أرى أن في هذه الكلمة دلالة نفسية عميقة، وأرى أنها أشد بكثير من أن تفسر تفسيرا ماديا كما رأى كثير من المفسرين، بأن الأف هو الشيء الحقير. أو أنه وسخ الأظفار وأنه يقال لكل ما يضجر ويستثقل(٥٩).

إن تفسير الآية بهذا التفسير المادي أمر غير كاف الآن. بل ينبغي أن ينظر إلى الأمر نظرة علمية، وأن يدرس وفق قواعد علم النفس. وما أظن شيئا يمكن أن يكون أشد قسوة على الوالدين من أن يواجه بالازدراء والتأفف من ولده. إن كلمة (أف)(٦٠) هذه، على صغرها، يمكن أن تعتصر قلب الوالد الحزين، فتملأه هما وكمدا واكتئابا، وأن تجري الدموع الصامتة الساخنة في عينيه، وأن تخرج الآهات الحارقة من صدره. إنها كلمة قاتلة فيها كل الإحساس بنكران الجميل، وضياع الشقاء الطويل في تربية الأولاد هباء.

ثم إن هذه الكلمة، من الناحية الصوتية، تمثل تسجيلا حيا لما يصدر من قلب المرء على لسانه عندما يريد أن يستهزئ بشخص ما ويزدريه، لقد أحسن الزمخشري عندما قال عنها إنها "صوت يدل على تضجر"(٦١). وهو مثل من القرآن الكريم للعاملين في مجال اللغة وتنميتها وتطويرها، أن يكونوا أكثر شجاعة في استخدام الكلمات، واشتقاق الألفاظ من الواقع الاجتماعي والبيئة اللغوية. إن القرآن الكريم وهو يفعل ذلك يعطينا مثلا لأسلوب من أساليب التنمية اللغوية كيف يكون. ومثل هذا يقال في قوله تعالى في قصة سيدنا موسى عليه السلام: "**وما تلك بيمينك يا موسى، قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى**"(٦٢).

فكلمة (أهش) هي الصورة الصوتية التي تخرج من فم الراعي وهو يسوق أغنامه. وكم عجبت عندما قرأت في بعض كتب التفسير أن

---

٥٧. طبانة، **معجم البلاغة العربية**، صفحة ٦٨١.

٥٨. القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، المشهور بتفسير القرطبي، الجزء العاشر، صفحة ٢٤٢.

٥٩. المرجع السابق، الجزء العاشر، صفحة ٢٤٢.

٦٠. مما يدل على أهمية هذه الكلمة وكثرة الالتجاء اليها أن فيها أربعين لغة، انظر في ذلك تاج العروس مادة (أفف) .

٦١. الزمخشري، **الكشاف، المجلد الثاني**، صفحة ٤٤٤.

٦٢. طه: ١٧-١٨.

معنى "أهش بها أي أخبط بها ورق الشجر وأضربه ليسقط"(٦٣) وأرى أن هذا التفسير يذهب بالصورة الحية الرائعة التي ترسمها الكلمة القرآنية.

وأما النهي الثاني في الآية الكريمة فهو في قوله تعالى "ولا تنهرهما" والنهر هنا بمعنى الزجر والإغضاب، وجاء في معاجم اللغة: نهر فلانا زجره وأغضبه(٦٤).

وقد وردت هذه المادة في القرآن الكريم مرتين – عدا ما ورد من مواضع عديدة للأنهار والنهار والنَهَر –، أعني أنها وردت مرتين فقط بمعنى الزجر والدفع والازدراء، إحداهما هذه الآية الكريمة التي نحن في ظلالها، والثانية هي قوله تعالى: "**وأما السائل فلا تنهر**"(٦٥).

وانظر إلى التشابه الشديد في دلالة الآيتين. إن السائل يكون – عادة – في موقف الذلة والحاجة والضعف والانكسار، فإذا قام إنسان ما – على الرغم من كل هذا الضعف – بزجره وينهره فانه بذلك يقتله ويميت قلبه ويكسر نفسه ويقضي عليه، فيمضي ذليلا مهينا.

وربما كان موقف الوالد، إذا تعرض لهذا الموقف المهين أشد إيلاما وأوجع إهانة أمام نفسه، قبل أن يكون ذلك أمام الناس. أما الوالد فانه يدل على ولده بمنزلته منه، وبحقوقه عليه، فان فاجأه الولد بمثل هذا العقوق والصلف والكبرياء، واعتدى عليه بفاحش القول فان ذلك كفيل بقتل الوالد حسرة وكمدا، وبسقوطه ذليلا مهانا من قسوة ولد ما كان ينتظر منه غير العطف والرعاية والحنان.

٦. "وقل لهما قولاً كريماً"

وردت (قولا) بهذه الصيغة، صيغة المصدر المنصوب، تسع عشرة مرة في القرآن الكريم. وفي أكثر هذه المواضع كان يوصف القول بوصف ما، وفي مواضع قلة كان يأتي خاليا من الوصف، وإنّما أقول ذلك لكي أسجل هنا ملاحظة قرآنية دقيقة؛ أن وصف القول بأنه قول كريم لم يرد إلا في سياق الحديث عن معاملة الوالدين. ويحسن أن نتدبر الأمثلة الآتية:

- قال تعالى: "**لا يكادون يفقهون قولا**"(٦٦)
- قال تعالى: "**أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا**"(٦٧)
- قال تعالى: "**إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا** "(٦٨)
- قال تعالى: "**سلام قولا من رب رحيم**"(٦٩)
- قال تعالى: "**ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله**"(٧٠).

---

٦٣. **الألوسي**، **روح المعاني**، الجزء السادس عشر، صفحة ١٥٩.

٦٤. مجمع اللغة العربية بالقاهرة، **المعجم الوسيط**، والفيروز أبادي، **القاموس المحيط**، مادة نهر.

٦٥. الضحى :١٠.

٦٦. الكهف: ٩٣.

٦٧. طه: ٨٩.

٦٨. طه: ١٠٩

٦٩. يس: ٨٥.

٧٠. فصلت: ٣٣.

وفي هذه الآيات الخمس وردت كلمة (قولا) دون وصف، وإن كان بعض المفسرين يجعل الجار والمجرور في آية سوره يس هو بمعنى النعت لما قبله.

ثم تدبر الأمثلة التالية:

- قال تعالى: "**فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم**"(٧١).
- قال تعالى: "**فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم**"(٧٢).
- قال تعالى: "**لا تواعدوهنّ سرا إلا أن تقولوا قولا معروفا**"(٧٣).
- قال تعالى: "**واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا**"(٧٤).
- قال تعالى: "**فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا**"(٧٥).
- قال تعالى: "**وقلن قولا معروفا**"(٧٦).
- قال تعالى: "**فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا**"(٧٧).
- قال تعالى: "**اتقوا الله وقولوا قولا سديدا**"(٧٨).
- قال تعالى: **وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا**"(٧٩).
- قال تعالى: "**فقل لهم قولا ميسورا**"(٨٠).
- قال تعالى: "**إنكم لتقولون قولا عظيما**"(٨١).
- قال تعالى: "**فقولا له قولا لينا**"(٨٢).
- قال تعالى: "**إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً**"(٨٣).
- قال تعالى: "**وقل لهما قولا كريما**"(٨٤).

إن صفات القول هذه التي تعددت في القرآن، وتنوعت، تحتاج إلى بحث خاص يربط بين الوصف والدلالة والسياق الذي وردت فيه. فما القول المعروف؟ وما القول السديد؟ وما القول البليغ؟ وما القول الميسور؟ وما القول اللين؟ وما القول الثقيل؟ إن البحث عن إجابة لهذا السؤال ستفتح أمام الدارس آفاقا واسعة من المعاني وتقدم له ألوانا من البيان القرآني. ولكنا نلاحظ هنا أن (القول الكريم) اختص بمعاملة الوالدين. وأحس ابتداء أن هذا الوصف له من الخصوصية والمكانة العالية الشيء الكبير، فهو يدل على منزلة عالية من الاحترام والتقدير والتبجيل تناسب مقام الوالدين، وقد وردت كلمة (كريم) مرفوعة ومنصوبة سبعا وعشرين مرة في القرآن الكريم، وقد كانت وصفا لمقامات عالية عند الله عز وجل، فقد ذكر: الرب الكريم والعرش الكريم والرسول الكريم والقرآن الكريم

---

٧١. البقرة: ٥٩.
٧٢. الاعراف: ١٦٢.
٧٣. البقرة: ٢٣٥.
٧٤. النساء: ٥.
٧٥. النساء: ٨.
٧٦. الاحزاب: ٣٢.
٧٧. النساء: ٩
٧٨. الاحزاب: ٧٠.
٧٩. النساء: ٦٣.
٨٠. الاسراء: ٢٨.
٨١. الاسراء: ٤٠.
٨٢. طه: ٤٤.
٨٣. الزمل: ٥.
٨٤. الإسراء: ٢٣.

والملك الكريم والرزق والأجر والمقام، كل ذلك كان في كتاب الله كريما. فانظر – إذن – أي منزلة يرفع الله عز وجل إليها الوالدين، وأي قول يجب أن يقوله المرء لوالديه.

٧. "واخفض لهما جناح الذل من الرحمة"

إن من أجمل المواقف وأشدها تأثيرا في قلب أي إنسان، أن يُرى الشخص القوي العزيز في موقف الرحمة والعطف والحنان على شخص آخر، وهو قادر على أن يكون غير ذلك. انظر إلى الزعيم الكبير، والقائد الذي تصطف أمامه الألوف، وتأتمر بأمره، يحبو في بيته وقد علاه ابنه الصغير مبتهجا ضاحكا. انظر إلى اللبؤة المفترسة وهي تسترخي غافية وقد استلقت جراؤها في حجرها ترضع، وترتع. إن هذا العطف واللين. هو الذي سماه القرآن الكريم (جناح الذل من الرحمة) فهو ليس ذلا عن ضعف واستكانه، بل عن رحمة ولين وحنان ورعاية وعناية، أما في مواقف الجد فان هذا الذل ينقلب إلى عزة وقوة وجبروت ولذا وصف الله عز وجل المؤمنين "**بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ...**"(٨٥) وقد أفاضت كتب التفسير في محاولة رسم هذه الصورة البيانية الجميلة، ولكنها أضاعت متعة المعنى في الحديث عن الاستعارة المكنية والتخييلية. وما أظن تعبيرا يؤدي المعنى بمثل هذا التعبير القرآني المبين.

ولكنني لا أستطيع أن أمر عن تعبير جميلٍ للألوسي يقول فيه "إن الوالدين احتاجا إلى مثل هذه الرعاية لافتقارهما إلى من كان أفقر الخلق إليهما، واحتياج المرء إلى من كان محتاجا إليه غاية في الضراعة والمسكنة، فيحتاج إلى أشد رحمة" (٨٦). وانطلاقا من ملاحظة الإمام الألوسي هذه أرى أن في قوله تعالى (جناح الذل) تذكيرا للأولاد بأن حالة الوالدين الآن، في كبرهما ليست بأشد ذلا واحتياجا بحاجتهم هم إلى آبائهم. وأنه يجب على الأولاد أن ينظروا إلى ضعف الآباء نظرة حسنة، وأن يدعوا لهم بالسلامة، لأن والديهم كانوا – وهم في طفولتهم – أحرص الناس على سلامتهم ورعايتهم وطول بقائهم.

" وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا "

هذه فاصلة الآية الثانية، ختام الآيتين الكريمتين، وفيها عدة نظرات بيانية من شواهد الإعجاز القرآني:

فعل الأمر هذا (وقل)، أمر من الله عز وجل حتى لا ينسى الولد أو يغفل عن الدعاء لوالديه. والولد عرضة للنسيان، ولولا هذا الأمر لغفل الأولاد عن رعاية آبائهم ولانقطعت الصلة بينهم، وفي هذا فساد للفطرة الإنسانية وقطع للعلاقات الاجتماعية.

هذا الدعاء لله عز وجل (رَبِّ)، وهو متناسب مع بداية الآيتين (وقضى ربك). فالذي (قضى) جل شأنه هو الذي يُدعى ويُرجى

---

(٨٥) المائدة : ٥٤.

(٨٦) الألوسي ، **روح المعاني** – الجزء الخامس عشر، صفحة: ٥٣.

لرحمة الوالدين. مع ما في خصوصية (رَبِّ) من رعاية الله عز وجل الموصوفة بحب خلقه ورعايتهم.

وهذا الدعاء لله عز وجل (ارحمهما)، والأمر عندما يكون من الإنسان لله عز وجل فهو دعاء. وفي هذا الدعاء لطيفة بيانية دقيقة، وهي أن المرء يدعو الله عز وجل أن يرحم والديه، وكان المنتظر أن يدعو الله أن يعينه على رحمة والديه ورعايتهما. ذلك بأن الله عز وجل يعلم أن الولد لن يستطيع – ولو اجتهد – أن يرحم والديه، وأن يرعاهما حق الرعاية، ولذلك وجهه الله إلى مصدر الرحمة والعناية القادر على فعل ذلك، فقال (وقل رب ارحمهما).

" كما ربياني صغيرا "

هل هذه الكاف للتشبيه أم للتعليل ؟

وهل (ما) هذه مصدرية أم ظرفية ؟

إنني أرى في اختلاف السادة العلماء – رضي الله عنهم – فتحا لآفاق لا نهاية لها من النظر، وأيّا ما كانت الكاف وما، فان في كل رأي بيانا راقيا ودلالة عظيمة.

على أنه من أجمل اللطائف التي توحى بها هذه الكاف، عندما تكون للتشبيه أن الله عز وجل، وهو العزيز الغفور، القادر على كل شيء، أمر الولد أن يدعوه – جل شأنه – بأن يجعل رحمة الله لوالديه تشبه رحمة والديه له عندما كان صغيرا.

أي بيان لرحمة الوالدين أبناءهم أجل من هذا البيان وأوضح؟

أي رفعة هذا، وأي بيان ؟

أي رفعة لمقام الوالدين أعلى من هذه المكانة ؟

أرأيت كيف تسمو رعاية الوالدين وتكبر حتى يجعلها الله عز وجل مشبها به لرحمته عباده.

إن أي تأويل لمعنى الكاف – تشبيها أو تعليلا وإنّ أي فهم لمعنى (ما) – مصدرية أو ظرفا – فإنّه لا يخرج عن هذا البيان الإلهي.

أي رفعة هذا، وأي بيان ؟

أي رفعة لمقام الوالدين أعلى من هذه المكانة؟

المعجز في إثبات حق الوالدين بالرعاية، وهذا في نهاية الآيتين، موافق لما بدأت به الآيتان من أن الإحسان للوالدين هو من قضاء الله عز وجل يوم خلق السموات والأرض. وصدق رسول الله ﷺ : (لا يخلق على كثرة الردّ ولا تنتهي عجائبه).

المراجع والمصادر

١) القرآن الكريم، الطبعة التي حازت شرف إصدارها دار المعرفة، بدمشق، وفيها حواش وملاحق كثيرة منها فهرس مواضيع القرآن.

٢) أبو حسان د. جمال محمود، **دراسات إسلامية وعربية**، دار الرازي، عمان، الطبعة الأولى ٢٠٠٣.

٣) أبو عودة، د.عودة، **التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم**، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن الطبعة الأولى ١٩٨٥.

٤) أبو عودة، د.عودة، **شواهد في الإعجاز_القرآني**، دار عمار، عمان، الطبعة الاولى ١٩٩٦.

٥) الأصفهاني، الراغب، **المفردات في غريب القرآن**، المطبعة الميمنية، القاهرة ١٣٢٤هـ، طبانة، بدوي، **البيان**، مطبعة الرسالة ، القاهرة، (بلا.ت).

٦) الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، إدارة الطباعة المنيرية بمصر، (بلا.ت).

٧) ابن خلدون، عبد الرحمن، **مقدمة العلامة ابن خلدون**، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٩٨٦.

٨) ابن هشام، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن هشام الأنصاري، **شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب**، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق ١٩٨٤.

٩) البخاري، الامام أبو عبدالله محمد بن اسماعيل، **صحيح البخاري**، طبعة الشعب، القاهرة، (بلا.ت).

١٠) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، **البيان والتبيين**، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٨.

١١) الحلبي، شهاب الدين محمود، **حسن التوسل إلى صناعة الترسل**. تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٠.

١٢) الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٩٨٣.

١٣) شوقي، أحمد، **الشوقيات**، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، (بلا.ت) .

١٤) طبانة، بدوي، **معجم البلاغة العربية**، دار المنارة، جدة ودار الرفاعي الرياض الطبعة الثالثة ١٩٨٨.

١٥) عبد الباقي، محمد فؤاد، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (بلا.ت).

١٦) العسكري، أبو هلال، **كتاب الصناعتين**، دار احياء الكتب العربية،

تحقيق علي البجاوي ومحمد أبو الفضل، القاهرة ١٩٥٢.

١٧) الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، الفيروز أبادي، **القاموس المحيط**، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٣ .

١٨) القرطبي، الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، القاهرة ١٩٦٢.

١٩) المبرد، الإمام أبو العباس محمد بن يزيد، **الكامل**، حققه وعلق عليه ووضع فهارسه الدكتور محمد أحمد الدالي. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٣.

٢٠) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، **المعجم الوسيط**، دار الفكر، (بلا.ت).

٢١) مسلم، الامام مسلم بن الحجاج النيسابوري، **صحيح مسلم**، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (بلا.ت).

Legislation and Uniqueness of Quranic Verses

Odeh Khaleel Abu Odeh

Abstract

This is a research in Quranic Uniqueness. It attempts to verify an established fact which should be the basis for any research in uniqueness, that is the Holy Quran has been revealed the Arabic Quran to be the immortal miracle of Allah to the prophet (prays of God be upon him). This means that the legislation revealed to Mohammed, the prophet in the Holy Book, is but the Arabic Quran representing an immortal miracle. Thus, the Quran comes to meet with the Holy Book, and the Holy Book contains the Quran in a miraculous divine combination of legislation and uniqueness as a unified whole which is the Holy Book of almighty Allah.

Every verse in the Quran can be used as evidence of that, but this research has taken the divine legislation in obeying the parents, working for their welfare and being benevolent to them as an example of this fact. Thus, the research has examined the verses concerned with caring for parents, and stated the difference between those parents who are given due care by their offspring and those who are not, and between people who are considerate to their parents and other people who are not. It goes on to investigate the two verses of AL-Isra' Chapter about benevolence to parents, and tries to extrapolate from them pieces of evidence of Quranic uniqueness and divine lucidity which does not cease to have mircales. This is an addition to what the two verses contain of lucidity images and Quranic sublime features.